منهج الخطيب القزوينى فى قراءة الشعر العربى

بقلم:

أ.د. محمد رفعت أحمد زنجير

موجز بحث:
(منهج الخطيب القزويني في قراءة الشعر العربي)

الحمد لله وحده، وسلام على من لا نبي بعده.
وبعد: فقد كرمتني مشكورة دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة بتوجيه الدعوة لي للمشاركة بورقة بحثية في " ملتقى الشارقة للشعر العربي" في دورته الثامنة التي ينظمها بيت الشعر في إمارة الشارقة برعاية دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة حول "الرؤية البلاغية والأسلوبية في قراءة النص الشعري"... ولدى قراءة الدعوة، وجدت نفسي مستجيبا كمن كان على موعد ينتظره، لأن هدفي الأسمى هو طلب المعرفة، لذا شمرت عن ساعد الجد، وبدأت رحلة البحث، واخترت أن يكون عنوان بحثي **(منهج الخطيب القزويني في قراءة الشعر العربي).** وهو يندرج ضمن عناصر المحور الأول: (الرؤية الأسلوبية في قراءة النص عند البلاغيين والنقاد العرب).

وقد تضمن بحثي العناصر الآتية:

- **مقدمـــة**

تحدثت فيها عن فوائدالشعر، وواجبنا نحو الشعر، وسبب كتابة البحث.

- **تمهـــيد**

ذكرت فيه بعض الاصطلاحات البلاغية والنقدية.

- **المبحث الأول: البلاغة قبل الخطيب القزويني**

تحدثت فيه عن نشأة العلوم اللغوية، وسبب دراسة البلاغة، وعلاقة البلاغة بالإعجاز، وجهود العلماء في البحث حول البلاغة والإعجاز، وقد تضمن بعض الرسوم البيانية الإيضاحية.

- **المبحث الثاني: منهج الخطيب في تناول النصوص الشعرية وتحليلها**

عني الخطيب القزويني بالتقعيد لمباحث البلاغة، وهو يتناول من الشواهد الشعرية ما يحقق تلك القاعدة، وذكرت أن من آثار مدرسة السكاكي نشوء مدرسة الخطيب القزويني الاتباعية، فقد قام الأخير بتلخيص كتاب: (مفتاح العلوم) للسكاكي، ويعد تلخيصه أفضل تلخيصات كتاب (مفتاح العلوم) وأشهرها، وهو لم يكن مجرد ملخص لمفتاح السكاكي، بل كانت له لمسات وإضافات، ولما كان التلخيص موجزاً، ويحتاج إلى شرح وتفصيل، فقد قام الخطيب القزويني بشرحه في كتابه المسمى: (إيضاح التلخيص)، وعرفت بمنهجه في الإيضاح، ثم ذكرت نماذج من شواهد الخطيب الشعرية في علوم البلاغة الثلاثة، وبينت طريقته في تحليلها.

- **المبحث الثالث: البلاغة بعد الخطيب القزويني**

بينت أن التلخيص أصبح دستور المتأخرين في علم البلاغة، وقد تنوع اهتمام العلماء بالتلخيص، فمنهم من شرحه، ومنهم من نظمه، ومنهم من لخصه!!، وقد ذكرت أسماء عدد ممن شرحوا التلخيص، أو اختصروه، أو نظموه شعراً، ثم تحدثت عن **انتشار التلخيص في الآفاق،** فقد تنوعت بلدان الشارحين، مما يدل على انتشار التلخيص في المشرق والمغرب، ونوهت بما **أضافه المتأخرون** في علم البديع، و**موقف النقاد من هذه الشروح وقيمتها العلمية... عرضت بعد ذلك كله لجمود البلاغة بعد الخطيب، وذلك** لارتباطها بمنطق التقسيم والتقعيد والتعقيد والفلسفة!!.

- **الخاتمة**

وقد ذكرت فيها خلاصة التجربة القزوينية، ونتائج البحث

أما في التجربة القزوينية فذكرت أن الخطيب القزويني كان منشغلاً بالتقعيد للدرس البلاغي، وفي مناقشة السكاكي في بعض المسائل العلمية، ولم يكن له قدرة عبد القاهر وخياله في التحليل، ولا منهج السكاكي الصارم في التقعيد والتبويب، بل كان وسطاً بينهما، لم يشغله في النصوص التي أوردها إلا ما يخدم مباحث البلاغة، وتحليله مقتضب في الغالب. وبينت أن **التجربة القزوينية بنت وقتها،** تصلح في تعليم البلاغة في زمانها وما أعقبه من عصور انحطاط وتقهقر حضاري، ولكن الزمان قد تجاوزها في العصر الحديث!.

وضمن نتائج البحث ذكرت **أهم المآخذ على البلاغة لدى مجموعة من الباحثين،** وهي:

١- قصور البحث البلاغي على الجملة أو البيت من الشعر دون النص.

٢- إن البلاغة القديمة لا تغطي مباحث علم الأسلوب.

٣- أدخلت غايات على البلاغة خارجة عن وظيفتها الأساسية.

٤- امتزاج البلاغة بالمباحث الفلسفية.

وبينت أن هناك من **دافع عن البلاغة، وحاول أن** يفند الدعاوى السابقة بحق البلاغة، وذكرت أن الموقف العلمي السليم هو أن ننظر إلى العلوم بعامة، ومنها البلاغة، على أنها تنمو وتتطور عبر التاريخ...

عقب ذلك ذكرت بعض المآخذ التي لمسناها في دراستنا للبلاغة، منها: تداخل المباحث بين المعاني والبديع والبيان، وتداخل المصطلحات البلاغية، وضبابية التعريفات، وأن مقتضى الحال يحتاج إعادة نظر وتطوير، وأن تقسيم مباحث البلاغة على ثلاثة علوم، يقصد منه تنظيم هذا العلم للدارسين، وأن البلاغة المصرية التي تمزج العلوم الثلاثة تحت مسمى البيان

أعقبت ذلك بذكر التوصيات، وهي:

أ- لا بد أن يستفيد علم البلاغة مما وصل إليه الفكر البلاغي من تقدم في أبحاثه عند الأمم الأخرى.

ب- لابد أن تكون البلاغة مستوى ضمن مستويات تحليل النص الأدبي..

ج- لا بد من إعادة الاعتبار للغة العربية وعلومها إذا أردنا أن يكون لهذه الأمة مستقبلا مشرقا تحت الشمس!

والحمد لله رب العالمين.

- **المقدمـــــــــــــــة**

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وعلمه البيان، وجعل اللسان العربي أشرف لسان، وجمع صفوة البيان العربي في هذا القرآن، وجعله تذكرة للإنس والجان، فله الثناء كله فهو الحنان المنان.

والصلاة والسلام على النبي العدنان، الذي هدانا للحق والإيمان، بما آتاه الله من قوة الحجة وعذب البيان، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.
وبعد: فإن الشعر هو ديوان العرب كما قال ابن عباس[١]، وتعلمه واجب لمن أراد معرفة أسرار اللسان العربي، ولطائف حجة الله على خلقه، وهي متمثلة في هذا الكتاب المعجز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

من فوائد الشعر

ومن خلال معرفة الشعر نعرف أيضاً أساليب البلاغة والبيان، وندرك الفرق الهائل بينه وبين كتاب الله سواء من حيث الشكل أو المحتوى والمضمون، إذ بضدها تتميز الأشياء، ولذلك جعل شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني الصاد عن تعلم الشعر "صاداً عن أن تعرف حجة الله تعالى، وكان مثلُه مثلَ من يتصدى للناس فيمنعهم عن أن يحفظوا كتاب الله تعالى ويقوموا به..." [٢]

ومن فوائد الشعر حل عقدة اللسان، وتشجيع قلب الجبان، وتزكية الأخلاق، وتربية الأذواق، وتخليد مآثر السابقين والرموز في كل أمة، وهو وسيلة للتقارب الاجتماعي ودفع الأذى، قال عمر رضي الله عنه: "نعم ما تعلمته العرب البيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته؛ فيستنزل بها الكريم. ويستعطف بها اللئيم"[٣].
بل تعدت "ومن فضائله أن اليونانيين إنما كانت أشعارهم تقييد العلوم والأشياء النفيسة والطبيعية التي يخش ذهابها فكيف ظنك بالعرب الذي هو فخرها العظيم وقسطاسها المستقيم"[٤].

واجبنا نحو الشعر

ولذلك كان الاحتفاء بالشعر وعلومه من واجبات الأمة العربية التي يشكل هذا الشعر تاريخها وهويتها واعتزازها وتطلعاتها، فهو وعاء آلامها وآلامها... ولما كانت دولة الإمارات العربية المتحدة سباقة في ميادين شتى ومنها ميدان الثقافة والعلوم، فقد أقامت في ربوعها بيتاً للشعر، في إمارة الشارقة التي هي ملاذ للعلم والمعرفة، وبيت عريق من بيوت العلم والأدب.

أكرم بشـــــــــــارقة للعلم والأدب
في حضنها يلتقي المصري بالحلبي
إمارة رفعـــــــــت بالعلم كاهلها
فأصبحت جوهـــراً كالقلب للعرب

---

[١] - العمدة في صناعة الشعر ونقده، لابن رشيق، ص (٢٣).
[٢] - كتاب دلائل الإعجاز، ص (٩).
[٣] - العمدة في صناعة الشعر ونقده، لابن رشيق، ص (١٤).
[٤] - العمدة في صناعة الشعر ونقده، لابن رشيق، ص (١٩).

* * *

سبب كتابة البحث

وقد كرمتني مشكورة دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة بتوجيه الدعوة لي للمشاركة بورقة بحثية في " ملتقى الشارقة للشعر العربي" في دورته الثامنة التي ينظمها بيت الشعر في إمارة الشارقة برعاية دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة حول "الرؤية البلاغية والأسلوبية في قراءة النص الشعري" وهو يتضمن المحاور الآتية:

- الرؤية الأسلوبية في قراءة النص عند البلاغيين والنقاد العرب .
- مقومات عمود الشعر الأسلوبية، مقاربة منهجية في قراءة النص الشعري .
- مستويات بنية النص الأسلوبية .
  - المستوى الصوتي
  - المستوى التركيبي
  - المستوى الدلالي
- الأسلوبية وتأويل النص ...
- قراءات أسلوبية ...

...

ولدى قراءة الدعوة، وجدت نفسي مستجيبا كمن كان على موعد ينتظره، لأن هدفي الأسمى هو طلب المعرفة، لذا شمرت عن ساعد الجد، وبدأت رحلة البحث، واخترت أن يكون عنوان بحثي **(منهج الخطيب القزويني في قراءة الشعر العربي).** وهو يندرج ضمن عناصر المحور الأول: (الرؤية الأسلوبية في قراءة النص عند البلاغيين والنقاد العرب)
وقد تضمن بحثي العناصر الآتية:

- **تمهـــيد**

ذكرت فيه بعض الاصطلاحات البلاغية والنقدية.

- **المبحث الأول: البلاغة قبل الخطيب القزويني**

تحدثت فيه عن نشأة العلوم اللغوية، وسبب دراسة البلاغة، وعلاقة البلاغة بالإعجاز، وجهود العلماء في البحث حول البلاغة والإعجاز، وقد تضمن بعض الرسوم البيانية الإيضاحية.

- **المبحث الثاني: منهج الخطيب في تناول النصوص الشعرية وتحليلها**

عني الخطيب القزويني بالتقعيد لمباحث البلاغة، وهو يتناول من الشواهد الشعرية ما يحقق تلك القاعدة، وذكرت أن من آثار مدرسة السكاكي نشوء مدرسة الخطيب القزويني الاتباعية، فقد قام الأخير بتلخيص كتاب: (مفتاح العلوم) للسكاكي، ويعد تلخيصه أفضل تلخيصات كتاب (مفتاح العلوم) وأشهرها، وهو لم يكن مجرد ملخص لمفتاح السكاكي، بل كانت له لمسات وإضافات، ولما كان التلخيص موجزاً، ويحتاج إلى شرح وتفصيل، فقد قام الخطيب القزويني بشرحه في كتابه المسمى: (إيضاح التلخيص)، وعرفت بمنهجه في الإيضاح، ثم ذكرت نماذج من شواهد الخطيب الشعرية في علوم البلاغة الثلاثة، وبينت طريقته في تحليلها.

- **المبحث الثالث: البلاغة بعد الخطيب القزويني**

بينت أن التلخيص أصبح دستور المتأخرين في علم البلاغة، وقد تنوع اهتمام العلماء بالتلخيص، فمنهم من شرحه، ومنهم من نظمه، ومنهم من لخصه!!، وقد ذكرت أسماء عدد ممن شرحوا التلخيص، أو اختصروه، أو نظموه شعراً، ثم تحدثت عن **انتشار التلخيص في الآفاق**، فقد تنوعت بلدان الشارحين، مما يدل على انتشار التلخيص في المشرق والمغرب، ونوهت بما **أضافه المتأخرون** في علم البديع، و**موقف النقاد من هذه الشروح وقيمتها العلمية... عرضت بعد ذلك كله لجمود البلاغة بعد الخطيب، وذلك** لارتباطها بمنطق التقسيم والتقعيد والتعقيد والفلسفة!!.

- **الخاتمة**

وقد ذكرت فيها خلاصة التجربة القزوينية، ونتائج البحث

وعليه فيكون هذا البحث مكوناً من تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة.

* * *

وفي الختام أود أن أشير إلى أن موضوع هذا الملتقى كبير جداً، ضارب في أعماق التاريخ، متمدد في أرجاء الواقع، وفيه من الآراء الكثيرة ما لايعد ولا يحصى، لأن النقد قائم على الذوق، والذوق يتفاوت ويختلف، وهو يطلب القيم
الجمالية التي هي بدورها أيضا مختلفة من جيل لآخر ومن مكان لمكان، ومن أمة لأخرى، وقد أشار إلى ذلك ولْ دْيورانت فقال: (إن في الجمال آراء بقدر مافي العالم من رؤوس، وكل محب للجمال يعتبر نفسه حجة في هذا الموضوع لامرد لرأيه).[٥]

وعليه فلدينا رؤى للبلاغيين وأخرى للأدباء وثالثة للشعراء أنفسهم، ورابعة للغويين وخامسة للفلاسفة، مما يتعذر معه الإحاطة والإلمام بكل ما قيل في هذا الباب، ورؤية الخطيب وحدها تستنفذ وقتاً طويلاً، فما بالك بباقي الرؤى... ومن ثم : سيكون الإيجاز في بحثنا هو الإنجاز، مع طرح أمثلة ونماذج، وتبيان الرأي الشخصي في بعض المواضع.

ومن الله نستمد العون والتوفيق.
عجمان
٢٠٠٩/١١/٢١م.

د. محمد رفعت أحمد زنجير

[٥] - قصة الفلسفة، ص (٥٨٢).

تمـــــــهـيـد

في ذكر بعض الاصطلاحات البلاغية والنقدية

الذوق:

قال ابن خلدون: (اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان، ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان... فالمتكلمُ بلسان العرب، والبليغُ فيه، يتحرى الهيئةَ المفيدةَ لذلك على أساليب العرب وأنحاءِ مخاطباتِهم، وينظِمُ الكلام على ذلك الوجه جُهْدَهُ، فإذا اتصلتْ مقاماتُهُ بمخالطةِ كلامِ العرب، حصلَتْ له المَلَكَةُ في نظم الكلام على ذلك الوجه، وسَهُلَ عليه أمر التركيب، حتى لايكادُ ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب!).[٦]
ويبين العلامة ابن خلدون وجه تسمية هذه الملكة بالذوق، فيقول: (واستعيرَ لهذه الملكةِ عندما ترسَخُ وتستقر اسمُ الذوق، الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان، وإنما هو موضوع لإدراك المطعوم، لكن لما كان محلُّ هذه الملكة في اللسان، من حيثُ النطقُ بالكلام، كما هو محلٌّ لإدراكِ المطعوم، استعير لها اسمُهُ، وأيضاً فهو وجدانيُّ اللسان، كما أن الطُّعومَ محسوسة له، فقيلَ له ذوقٌ).[٧]

وعرفه من المحدثين الأستاذ جبور عبد النور بقوله: (ملكة الإحساس بالجمال، والتمييز بدقة بين حسنات الأثر الفني وعيوبه، وإصدار الحكم عليه).[٨]

وذكر الأستاذان مجدي وهبة وكامل المهندس تعريفات للذوق منها:
(- قدرة الإنسان على التفاعل مع القيم الجمالية في الأشياء، وخاصة في الأعمال الفنية.
- نظام الإيثار لمجموعة محددة من القيم الجمالية نتيجة لتفاعل الإنسان معها).[٩]

وهذه التعريفات قريبة في فحواها، ولعل تعريف العلامة ابن خلدون هو الأجود من هذه التعريفات، لما فيه من بسط وإيضاح وتفصيل!، وأما تعريفات المحدثين فهي تشمل الأعمال الفنية وليست خاصة بالشعر والأدب، وهي تربط ربطاً مباشراً بين الذوق والجمال.
ومن هذه التعريفات نستنتج أن الذوق ملكة يحس من خلالها الأديب أو الناقد بالجمال الأدبي، ويميز بين ما هو جيد وما هو رديء، أو ما هو جيد وأجود!.

الفصاحة:
لغة: الظهور والإبانة

الفصاحة في المفرد:
خلوصه من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس[١٠].

الكلام الفصيح:
"خلوصه من ضعف التأليف، وتنافر الكلمات، والتعقيد، مع فصاحتها"[١١]

---

[٦] - مقدمة ابن خلدون، ص (٥٦٢).
[٧] - المصدر السابق، ص (٥٦٣).
[٨] - المعجم الأدبي، (ذوق).
[٩] - معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، (ذوق).
[١٠] - التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، شرحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي ص (٢٤).

وعرفه عبد الرحمن البرقوقي: "ما كان سهل اللفظ واضح المعنى جيد السبك متلائم الحروف، غير مستكره فج ولا متكلف وخم، ولا مما نبذته العرب وعدلت عن ألفاظه البلغاء[١٢].

البلاغة:
لغة: الوصول والانتهاء.

البلاغة في الكلام:
(مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته)[١٣].

البلاغة في المتكلم:
(ملكة يُقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح)[١٤].

مقتضى الحال:
هو الاعتبار المناسب[١٥].

علم المعاني:
(هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال)[١٦].

علم البيان:
(هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة)[١٧].

علم البديع:
(هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة)[١٨].

* * *

---

[١١] - التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص (٢٦).
[١٢] - التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص (٢٤).
[١٣] - التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص (٣٣).
[١٤] - التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص (٣٢).
[١٥] - التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص (٣٥).
[١٦] - التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص (٣٧).
[١٧] - التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص (٢٣٥).
[١٨] - التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص (٣٤٧).

المبحث الأول:

البلاغة قبل الخطيب القزويني

يجدر بنا قبل البدء في الحديث عن البلاغة، أن نذكر مقدمة حول اللغة وعلومها، تكون توطئة للحديث عن البلاغة وتاريخها، ومدرسة الخطيب القزويني البلاغية ومنهجها في قراءة الشعر العربي.

إن اللغة العربية أشرف اللغات، نزل القرآن بها، وبعث النبي الخاتم على أرضها، وجعل الله الكعبة البيت الحرام في ربوع بلادها، فهي من مقومات بقاء الأمة، ومن أبرز معالمها الثقافية والحضارية على مر التاريخ.

وعلوم هذه اللغة كما ذكر أهل العلم هي "ثلاثة عشر علماً: الصرف والإعراب ويجمعهما اسم النحو، والرسم، والمعاني، والبيان، والبديع، والعروض، والقوافي، وقرض الشعر، والإنشاء، والخطابة، وتاريخ الأدب، ومتن اللغة"[١٩].

نشأة العلوم اللغوية

ولا شك أن التسلسل التاريخي لنشأة علوم اللغات الحية يقتضي ظهور المفردات أولا ثم الجمل والتراكيب، ثم توجد النصوص المطولة من منظوم ومنثور، ثم يتبع ذلك ظهور علم النحو والصرف المستنبط من تلك التراكيب والنصوص، ثم علم الأدب الذي يقوم على دراسة النصوص وفق قواعد النحو والصرف، ثم علم البلاغة الذي يضع المقاييس الجمالية للكلام الأدبي، ثم علم النقد الذي يحكم على جودة النصوص ورداءتها، ويفاضل بينها من خلال مدى التزامها أو بعدها عن القيم الجمالية البلاغية والذوق الأدبي لأي أمة.

وعليه فنحن نرى أن الناقد لا بد له من أن يلم باللغة وعلومها، فهو يحتل قمة الهرم في علوم اللغة، والنقد يقوم مباشرة على البلاغة، ثم يسترفد من بقية علوم اللغة والحياة.

وهذا رسم توضيحي يلخص ما ذكرناه، ويبين العلاقة بين هذه العلوم التي قد يمتزج بعضها ببعض وبخاصة في لغة العرب:

---

[١٩] - جامع الدروس العربية، للغلاييني، (٨/١)، المكتبة العصرية بيروت، الطبعة (٣٣).

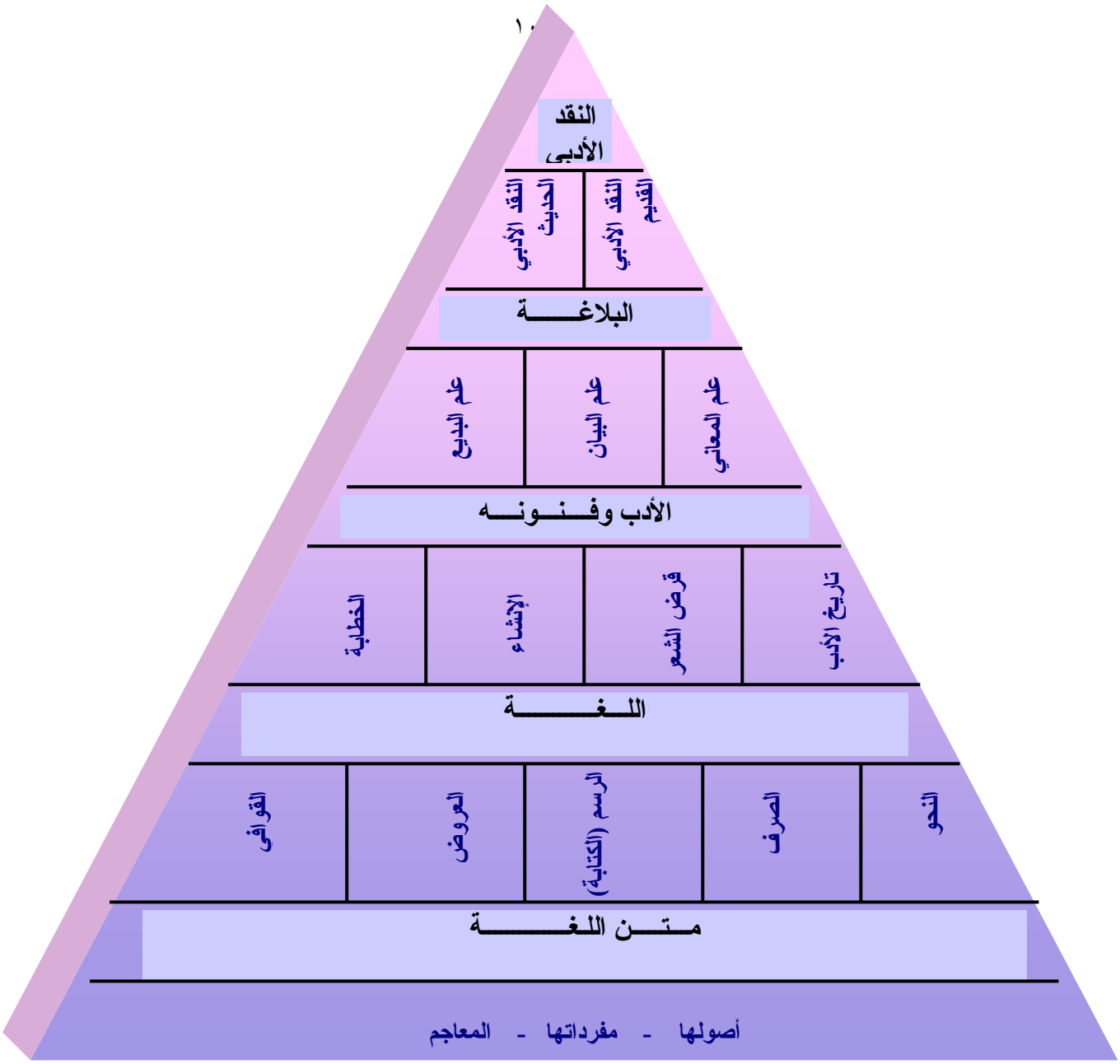

مخطط يمثل اللغة العربية وعلومها وتطور تلك العلوم

لماذا ندرس البلاغة:

ندرس البلاغة لأسباب منها:
١- لأنها هي الوسيلة للحكم على النصوص الأدبية.
٢- لتنمية الذوق الأدبي والنقدي.
٣- لتطوير المهارات الأسلوبية لدى الناطقين باللغة العربية.
٤- للتواصل مع تراثنا القديم وأدبنا المعاصر، ومعرفة ما فيه من قيم جمالية.
٥- لمعرفة إعجاز القرآن الكريم.

علاقة البلاغة بالإعجاز

جعل الله كتابه المنزل على سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ معجزةً باقيةً أبد الدهر، ووجوه إعجازه كثيرة منها: الإعجاز البياني، والإعجاز التشريعي، والإنباء بالغيوب الماضية والمستقبلة، والإعجاز العلمي، وغير ذلك..

والإعجاز البياني والأسلوبي هو أهمها وأشهرها؛ وذلك أن وجوه الإعجاز الأخرى هي وجوه مشتركة بين القرآن وبين الكتب السماوية المنزلة قبله، ووجودها فيه هو إعجاز لها وله، لأنه قد تضمنها، وهيمن عليها، ولكنه انفرد دونها بالإعجاز البياني والبلاغي الذي هو السحر الحلال: يأخذ العقول بجماله، ويبهر النفوس بعظمته، فسبحان من أنزله على عبده!، وجعل فضله على سائر الكلام كفضله على خلقه!.

جهود العلماء في البحث حول البلاغة والإعجاز

وقد هرع العلماء للبحث في وجوه الإعجاز بعامة، والإعجاز البياني على وجه الخصوص، فاقترن البحث بالإعجاز مع البحث البلاغي، وكان أول من تصدى لذلك الجاحظ في كتبه، وبخاصة كتابيه: نظم القرآن، والبيان والتبيين، ثم تبعه العلماء بالبحث، وكان ابرزهم الباقلاني صاحب كتاب إعجاز القرآن (ت٤٠٣هـ)، وعبد القاهر الجرجاني صاحب كتاب أسرار البلاغة وكتاب دلائل الإعجاز (ت ٤٧١هـ)، والزمخشري صاحب تفسير الكشاف والذي طبق قواعد البلاغة التي ذكرها عبد القاهر من خلال تفسيره لآيات القرآن (ت ٥٣٧هـ)، ثم جاء السكاكي فمخض زبدة ما قيل قبله في كتابه مفتاح العلوم (ت ٦٢٦هـ)، وانتهت رئاسة هذا العلم إلى الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) الذي لخص كتاب مفتاح العلوم في كتابه: **تلخيص المفتاح**، ثم شرح التلخيص في كتابه الإيضاح.

وبين هؤلاء العلماء أعلام كثر، لم نذكرهم اختصاراً للوقت، وقد فصلت القول في هذا الموضوع ضمن كتابي: (مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن) واكتفيت هنا بذكر أئمة هذا العلم، وفيما يلي مخطط موجز يوضح ما ذكرناه:

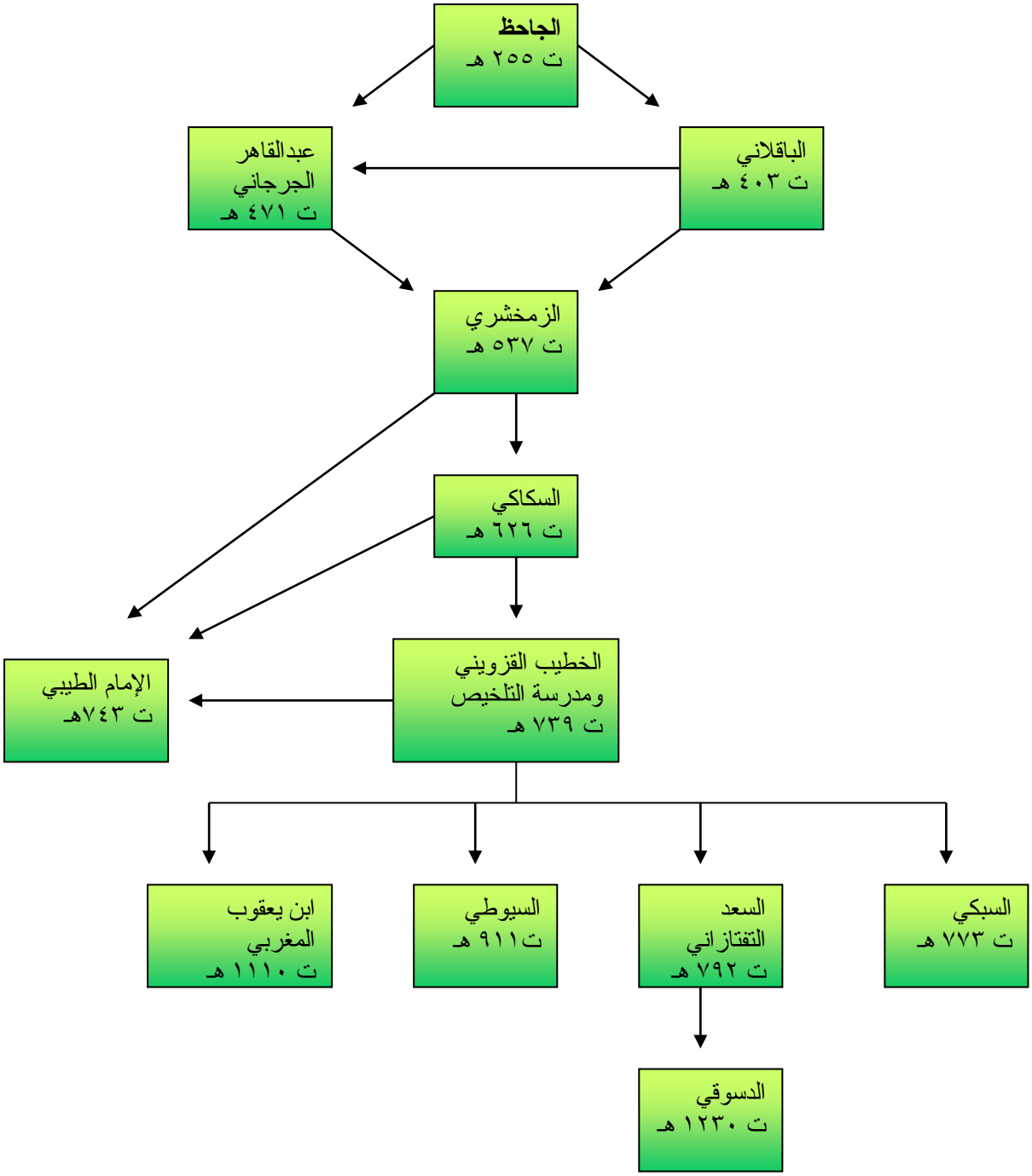

مخطط يوضح تأسيس البلاغة العربية وتطورها

لقد انتهت رئاسة علم البلاغة إلى الخطيب القزويني الذي قام بوضع تلخيصه الشهير لمفتاح السكاكي[٢٠]، وعكف عليه المتاخرون يدرسونه ويشرحونه قرابة ستة قرون من بعده!.

* * *

[٢٠] - اقتبسنا في هذه الفقرة مما أوردناه في مقدمتنا للتلخيص، انظر: تلخيص المفتاح: علم المعاني والبديع، ص (٧-١٨)، المنتدى الإسلامي، الشارقة، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

المبحث الثاني:

منهج الخطيب في تناول النصوص الشعرية وتحليلها

عني الخطيب القزويني بالتقعيد لمباحث البلاغة، وهو يتناول من الشواهد الشعرية ما يحقق تلك القاعدة، ويمكن إيجاز هذا المبحث بالأمور التالية:

أولا: من آثار مدرسة السكاكي نشوء مدرسة الخطيب القزويني [٢١] الاتباعية، فقد قام الأخير بتلخيص كتاب: (مفتاح العلوم) للسكاكي، وقال في مقدمة تلخيصه: "أما بعد: فلما كان علم البلاغة وتوابعها من أجل العلوم قدرا، وأدقها سرا، إذ به تعرف دقائق العربية وأسرارها، وتُكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أستارها، وكان القسم الثالث من (مفتاح العلوم) الذي صنفه الفاضل العلامة أبو يعقوب السكاكي: أعظم ما صنف فيه من الكتب المشهورة نفعا، لكونه أحسنها ترتيبا، وأتمها تحريرا، وأكثرها للأصول جمعا، ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد، قابلا للاختصار، مفتقرا إلى الإيضاح والتجريد، ألفتُ مختصرا يتضمن ما فيه من القواعد، ويشتمل على ما يُحتاج إليه من الأمثلة والشواهد، ولم آل جهدا في تحقيقه وتهذيبه، ورتبته ترتيبا أقرب متناولا من ترتيبه، ولم أبالغ في اختصار لفظه تقريبا لتعاطيه، وطلبا لتسهيل فهمه على طالبيه، وأضفت إلى ذلك فوائد عثرت في بعض كتب القوم عليها، وزوائد لم أظفر في كلام أحد بالتصريح بها ولا الإشارة إليها، وسميته: (تلخيص المفتاح)"[٢٢].

ثانيا: ويعد تلخيص الخطيب القزويني أفضل تلخيصات كتاب (مفتاح العلوم) وأشهرها، فهو"خير من تأثر بالسكاكي، ونحا منحاه في تلخيص قواعد البلاغة، هذا المنحى الذي أدى الالتزام به، والاسترسال فيه فيما بعد إلى جفاف الدراسات البلاغية وجمودها، وكما أقبل القزويني على مفتاح السكاكي تلخيصا وتوضيحا، أقبل كذلك كثيرون من رجال البلاغة شرقا وغربا على تلخيص القزويني درسا وحفظا وتلخيصا وشرحا ونظما، كأنهم رأوا فيه خير مرجع لقواعد البلاغة"[٢٣].

ثالثا: ولم يكن القزويني مجرد ملخص لمفتاح السكاكي، بل كانت له لمسات وإضافات، يقول الدكتور شوقي ضيف: "وأهم من نزعوا عن قوس السكاكي الخطيب القزويني، فإنه صنف تلخيصا دقيقا لمباحثه البلاغية في المفتاح، ذلل فيه صعوبته تذليلا، مع الاستضاءة بتلخيص بدر الدين بن مالك وبآراء عبد القاهر والزمخشري، وهو يناقش الآخرين كثيرا، أما السكاكي فيخصه بكثير من الاعتراضات على تعاريفه وبعض آرائه، ورأى في هذا التلخيص إجمالا أكثر مما ينبغي فصنف كتابه: (الإيضاح) يبسط فيه معانيه المجملة وقضاياه المشكلة"[٢٤].

رابعا: لما كان التلخيص موجزاً، ويحتاج إلى شرح وتفصيل، فقد قام الخطيب القزويني بشرحه في كتابه المسمى: (إيضاح التلخيص)، ونوجز الحديث عنه بما يلي:

أ- قال في مقدمته موضحا منهجه ومصادره، وما أضافه فيه من آرائه ونظراته: "فهذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها، ترجمته بـ: (الإيضاح)، وجعلته على ترتيب مختصري الذي سميته:

---

[٢١] - هو محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق، قاض من أدباء الفقهاء، مولده بالموصل، ووفاته بدمشق. (٦٦٦-٧٣٩هـ = ١٢٦٨-١٣٣٨م). انظر: الأعلام، (١٩٢/٦).

[٢٢] - التلخيص في علوم البلاغة، ص(٢١-٢٣).

[٢٣] - علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، ص (٥٧).

[٢٤] - البلاغة تطور وتاريخ، ص (٣٧٥).

(تلخيص المفتاح)، وبسطت القول فيه، ليكون كالشرح له؛ فأوضحت مواضعه المشكلة، وفصلت معانيه المجملة، وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر، مما تضمنه: (مفتاح العلوم)، وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله، في كتابيه: (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة)، وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما، فاستخرجت زبدة ذلك كله، وهذبتها ورتبتها، حتى استقر كل شيء منها في محله، وأضفت إلى ذلك ما أدى إليه فكري، ولم أجده لغيري، فجاء بحمد الله جامعا لأشتات هذا العلم، وإليه أرغب في أن يجعله نافعا لمن نظر فيه من أولي الفهم"[٢٥].

ب – ناقشَ القزوينيُّ آراءَ السكاكي في كثير من المواضع، من ذلك:
ب-١- تعريف علم المعاني: فقد عرفه الخطيب بأنه: "علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يُطابق مقتضى الحال". ونقل تعريف السكاكي، وهو: "تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ، في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحال ذكره".
ويعلق الخطيب القزويني على هذا التعريف قائلا: "وفيه نظر، إذ التتبع ليس بعلم، ولا صادق عليه، فلا يصح تعريف شيء من العلوم به.
ثم قال ـ أي السكاكي ـ : (وأعني بالتراكيب تراكيب البلغاء).
ولا شك أن معرفة البليغ، من حيث هو بليغ متوقفة على معرفة البلاغة، وقد عرفها في كتابه بقوله: (البلاغة هي: بلوغ المتكلم في تأدية المعنى حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها).
فإن أراد بالتراكيب في حد البلاغة تراكيب البلغاء ـ وهو الظاهر ـ فقد جاء الدور، وإن أراد غيرها فلم يبينه، على أن قوله: (وغيره) مبهم لم يبين مراده"[٢٦]

ب-٢- وناقشَ السكاكيَّ في إنكاره للمجاز العقلي، فقال بعد أن عرف المجاز العقلي، وذكر أمثلته: "وأنكر السكاكي وجود المجاز العقلي في الكلام، وقال: (الذي عندي نظمه في سلك الاستعارة بالكناية، بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي بواسطة المبالغة في التشبيه ـ على ما عليه مبنى الاستعارة كما سيأتي ـ وجعلِ نسبة الإثبات إليه قرينة للاستعارة، وبجعل الأمير المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم[٢٧]، وجعل نسبة الهزم إليه قرينة للاستعارة)".[٢٨]
ويناقش ما ذكره السكاكي، مدعما رأيه بالشواهد القرآنية والأمثلة البلاغية، ليصل إلى تفنيده ونفيه، يقول: "وفيما ذهب إليه نظر، لأنه يستلزم أن يكون المراد بـ: (عيشة) في قوله تعالى: (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) (الحاقة:٢١) صاحب العيشة، لا العيشة، و بـ (ماء) في قوله تعالى: (خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ) (الطارق:٦) فاعل الدفق، لا المنيَّ، لما سيأتي من تفسيره للاستعارة بالكناية.
وأن لا تصح الإضافة في نحو قولهم: (فلان نهاره صائم وليله قائم). لأن المراد بالنهار ـ على هذا ـ فلان نفسه، وإضافة الشيء إلى نفسه لا تصح.
وأن لا يكون الأمر بالإيقاد على الطين في إحدى الآيتين ـ وبالبناء ـ فيهما لهامان، مع أن النداء له[٢٩].

---

[٢٥] ـ الإيضاح في علوم البلاغة، شرح د. محمد عبد المنعم خفاجي، (١/٧٠-٧١).
[٢٦] ـ المصدر السابق، (١/٨٤-٨٥).
[٢٧] ـ المراد هنا المثل الذي أورده السكاكي: (هزم الأمير الجند).
[٢٨] ـ المصدر السابق، (١/١٠٧).
[٢٩] ـ يقصد بالآيتين قوله تعالى: (فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً)(القصص: من الآية٣٨)، وقوله: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ) (غافر:٣٦). فالأمر لهامان لأنه الفاعل مجازا، والفاعل الحقيقي هم العمال.

وأن يتوقف جواز التركيب في نحو قولهم: (أنبت الربيع البقل، وسرني رؤيتك) على الإذن الشرعي، لأن أسماء الله تعالى توقيفية.
وكل ذلك منتف ظاهر الانتفاء"[٣٠].
ويستأنف تفنيده رأي السكاكي مدعما رأيه بمزيد من الأمثلة والتحليل: "ثم ما ذكره منقوض بنحو قولهم: (فلان نهاره صائم) فإن الإسناد فيه مجاز، ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن فلان؛ لأن ذكر طرفي التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة، ويوجب حمله على التشبيه، ولهذا عُدَّ نحو قولهم: (رأيت بفلان أسداً، ولقيني منه أسد) تشبيها لا استعارة، كما صرح السكاكي أيضا بذلك في كتابه"[٣١].
ويبين في النهاية أنه خالف السكاكي في وضع المجاز العقلي أيضا، فالسكاكي ساقه في مباحث علم البيان، والخطيب القزويني ساقه ضمن مباحث علم المعاني، لأنه يتعلق بالإسناد، والإسناد من مباحث علم المعاني، يقول: "تنبيه: إنما لم نورد الكلام في الحقيقة والمجاز العقليين في علم البيان، كما فعل السكاكي ومن تبعه، لدخوله في تعريف علم المعاني، دون تعريف علم البيان"[٣٢].

ب-٣- وخصص الخطيب القزويني فصلا لمناقشة آراء السكاكي في الحقيقة والمجاز، بدأه بقوله: "اعلم أن كلام السكاكي في هذا الباب ـ أعني باب الحقيقة والمجاز ـ والفصل الذي يليه؛ مخالف لمواضع مما ذكرنا، فلا بد من التعرض لهان ولبيان ما فيها"[٣٣].

ب-٤- ومن الأمور التي ناقشه فيها: تقسيم المجاز، قال: "ومنها: أنه قسم المجاز إلى الاستعارة وغيرها، وعرف الاستعارة: بـ: (أن تذكر أحدَ طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر، مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به). وقسم الاستعارة إلى المصرح بها، والمكني عنها، وعنى بالمصرح بها: أن يكون المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به. وجعلها ثلاثة أضرب: تحقيقية، وتخييلية، ومحتملة للتحقيق والتخييل، وفسر التحقيقية بما مر، وعد التمثيل على سبيل الاستعارة منها.
وفيه نظر؛ لأن التمثيل على سبيل الاستعارة لا يكون إلا مركبا كما سبق، فكيف يكون قسماً من المجاز المفرد؟! ولو لم يقيد الاستعارة بالإفراد، وعرفها بالمجاز الذي أُريد به ما شُبِّه بمعناه الأصلي مبالغة في التشبيه، دخل كل من التحقيقية والتمثيل في تعريف الاستعارة"[٣٤].
وهذه الأمثلة تؤكد مقدرة الخطيب البلاغية، فلم يكن مجرد ناقل لآراء السكاكي، بل كان معقبا ومحققا لمسائل البلاغة، لا يقل شأنه في ذلك عن شأن من سبقوه.

ج- استفاد القزويني من المادة العلمية لدى السكاكي، وقام بتهذيبها وترتيبها.
فمن ذلك: أنه استطاع أن يرتب مباحث علم المعاني بيسر وسهولة، وأن يعلل حصرها بثمانية، يقول: "ثم المقصود من علم المعاني منحصر في ثمانية أبواب:
أولها: أحوال الإسناد الخبري.
وثانيها: أحوال المسند إليه.
وثالثها: أحوال المسند.
ورابعها: أحوال متعلقات الفعل.
وخامسها: القصر.
وسادسها: الإنشاء.

---

[٣٠] - المصدر السابق، (١٠٧/١-١٠٨).
[٣١] - المصدر السابق، (١٠٨/١).
[٣٢] - المصدر السابق، (١٠٨/١).
[٣٣] - المصدر السابق، (٤٤٧/٢).
[٣٤] - المصدر السابق، (٤٤٨/٢).

وسابعها: الفصل والوصل.
وثامنها: الإيجاز والإطناب والمساواة.
ووجه الحصر: أن الكلام إما خبر أو إنشاء، لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه. أو لا يكون لها خارج. الأول: الخبر، والثاني: الإنشاء. ثم الخبر لا بد له من إسناد ومسند إليه ومسند، وأحوال هذه الثلاثة هي الأبواب الثلاثة الأولى، ثم المسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلا، أو متصلا به، أو في معناه. كاسم الفاعل ونحوه، وهذا هو الباب الرابع. ثم الإسناد والتعلق كل واحد منهما يكون إما بقصر أو بغير قصر، وهذا هو الباب الخامس. والإنشاء هو الباب السادس. ثم الجملة إذا قرنت بأخرى فتكون الثانية إما معطوفة على الأولى، أو غير معطوفة، وهذا هو الباب السابع. ولفظ الكلام البليغ إما زائد على أصل المراد لفائدة، أو غير زائدة عليه، وهذا هو الباب الثامن"[٣٥].

د- جعل علم البديع علما مستقلا قائما بذاته، وعرفه بأنه: "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال، ووضوح الدلالة"[٣٦].
وهو هنا يطور ما فعله السكاكي الذي عرض مبحث البديع بعد أن فرغ من علم البيان، ولم ينص عليه كعلم مستقل في القسم الثالث من المفتاح الذي خصصه للمعاني والبيان، واعتبر فيه علم المعاني أصلا لعلم البيان، حيث قال: "ولما كان علم البيان شعبة من علم المعاني، لا تنفصل عنه، إلا بزيادة اعتبار، جرى منه مجرى المركب من المفرد، لا جرم أننا آثرنا تأخيره"[٣٧]. وقال عند خاتمة علم البيان: "وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها، وأن الفصاحة بنوعيها، مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسين، فهاهنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها، وهي قسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ، فمن القسم الأول: المطابقة"[٣٨]

هـ- وعن قيمة هذا الكتاب يقول شارحه د. محمد عبد المنعم خفاجي: "وكتاب الإيضاح عمل جليل في البلاغة، سواء في ترتيبه وتقسيمه وتنظيم بحوثه، أم في استيعابه واستقصائه وتحليله، أم في جمعه واستمداده من شتى المصادر والمراجع، أم في أسلوبه الأدبي وروحه وكثرة تطبيقاته البلاغية، وهو أهم كتاب دراسي في البلاغة في العصر الحاضر"[٣٩].

خامساً: نقدم فيما يأتي نماذج من شواهد الخطيب الشعرية

أ – في حديثه عن تعريف المسند إليه بالموصولية، ذكر من مواضع مجيئه: "أو تنبيه المخاطب على خطأ، نحو:

إن الذين ترونهم إخوانكـــــــــم
يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا

أو للإيماء إلى وجه بناء الخبر، نحو: (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) [غافر: ٦٠]، ثم إنه ربما جعل ذريعة إلى لتعريض بالتعظيم لشأنه، نحو:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

---

[٣٥] - المصدر السابق، (٨٥/١).
[٣٦] - المصدر السابق، (٤٧٧/٢)، وانظر أيضا: (٨٣/١).
[٣٧] - مفتاح العلوم، ص(٧٧).
[٣٨] - المصدر السابق ، ص(٢٠٠).
[٣٩] - الإيضاح في علوم البلاغة، (٦٧/١).

أوشأن غيره، نحو: (الذين كذبوا شعيباً هم الخاسرين) [الأعراف: ٩٢].
وانتقل للتعريف "**بالإشـارة لتمييزه أكمل تمييز**، نحو قوله:
هذا أبـو الصقر فرداً في محاسنه

أو التعريض بغباوة السامع، كقوله[٤٠]:
أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ب- وتحدث عن االتشبيه فقال: " والمركب الحسي فيما طرفاه مفردان، كما في قوله:
وقد لاح في الصبح الثريا كما ترى كعنقود ملاحية[٤١] حين نورا

من الهيئة الحاصلة من تقارن الصور البيض المستديرة، الصغار المقادير في المرأى على الكيفية المخصوصة إلى المقدار المخصوص.
وفيما طرفاه مركبان كما في قول بشـار:
كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا، ليل تهاوى كواكبه

من الهيئة الحاصلة من هُوِيِّ أجرام مشرفة مستطيلة متناسبة المقدار، متفرقة في جوانب شيء مظلم"[٤٢].

ج- وفي علم البديع تحدث عن الجمع مع التقسيم، فقال: "وهو: جمع متعدد تحت حكم، ثم تقسيمه، أو العكس. فالأول: كقوله:
حتى أقام على أرباض خرشنة تشقى به الروم والصلبان والبيع

للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

والثاني: كقوله[٤٣]:
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع

د- وفي حديثه عن رد العجز على الصدر، قال: " وفي النظم أن يكون أحدهما في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأول، أو آخره، أو في صدر الثاني، كقوله[٤٤]:
سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعي الندى بسريع

---

[٤٠] - التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص (٥٩-٦٢).
[٤١] - ملاحية : عنب أبيض في حبه طول.
[٤٢] - التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص (٢٥٣-٢٥٤).
[٤٣] - التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص (٣٦٥).
[٤٤] - التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص (٣٩٣-٣٩٧).

وقوله:
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

وقوله:
ومن كان بالبيض الكواعب مغرما فما زلت بالبيض القواضب مغرما

وقوله:
وإن لم يكن إلا معرجَ ساعة قليلا فإني نافعٌ لي قليلها

وقوله:
دعاني من ملامكما سَفاها فداعي الشوق قبلكما دعاني

وقوله:
وإذا البلابل أفصحت بلغاتها فانفِ البلابلَ باحتساء بلابلِ

وقوله:
فمشغوف بآيات المثاني ومفتون برنات المثاني

وقوله:
أملتهم ثم تأملتهم فلاح لي أن ليس فيهم فلاحْ

وقوله:
ضرائب أبدعتها في السماح فلسنا نرى لك فيها ضريبا

وقوله:
إذا المرء لم يحزن عليه لسانه فليس على شيء سواه بحزان

وقوله:
لو اختصرتم من الإحسان زرتكُمُ والعذب يهجر للإفراط في الخَصَرِ

وقول ابن عيينة المهبلي:
فدع الوعيد فما وعيدك ضائري أطنين أجنحة الذباب يضير

وقوله:
وقد كانت البيض القواضب في الوغى بواتر فهي الآن من بعده بتر

هـ ـ ولا تخلو بعض الأبيات من تحليل، كقوله: "ومن بديع المركب الحسي، ما يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركة، ويكون على وجهين:
أحدهما: أن يُقترن بالحركة غيرُها من أوصاف الجسم، كالشكل واللون كما في قوله:

والشمس كالمرأة في كف الأشل

من الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الإشراق، الحركة السريعة المتصلة، مع تموج الإشراق، حتى يُرى الشعاع كأنه يهمُّ بأن ينبسط حتى يفيض من جوانب الدائرة، ثم يبدو له فيرجع إلى الانقباض"[٤٥].
ومثل هذا التحليل مقتبس من كلام عبد القاهر[٤٦]، ولكن بعد أن اختزل كلام الشيخ عبد القاهر وذهب برونقه وجماله.

والخلاصة أن منهج القزويني ـ في الغالب ـ هو بيان موضع الشاهد البلاغي في البيت دون الالتفات لأية جماليات أخرى في السياق[٤٧]، ولم يحلل أية قصيدة تحليلا كاملا، ولم ينسب الشواهد الشعرية لأصحابها، بل ربما لم يوضح موضع الشاهد في البيت الشعري، مما حدا بالشيخ عبد الرحيم العباسي أن يضع كتابه: (معاهد التنصيص على شواهد التلخيص)، وقد قال في مقدمته: "وفيه من الشواهد الشعرية ما يُعزى للأقدمين، وما يُنسب للمولدين، إلا أن أكثرها مجهول الأنساب مغفول الأحساب... ولم أر من عمل على تلك الشواهد شرحاً يشفي العليل أو يروي الغليل"[٤٨].

* * *

[٤٥] ـ التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص (٢٥٥-٢٥٧).
[٤٦] ـ انظر: أسرار البلاغة، تحقيق ريتر، ص (١٤٤، ١٦٩).
[٤٧] ـ استفدنا في هذه الفقرة من بعض ما أوردناه في كتابنا: مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن الكريم، ص (٢٤١-٢٥٢)، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
[٤٨] ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، (٢/١).

المبحث الثالث:

البلاغة بعد الخطيب القزويني

أصبح التلخيص دستور المتأخرين في علم البلاغة، وقد تنوع اهتمام العلماء بالتلخيص، فمنهم من شرحه ومن نظمه ومن لخصه، فممن شرحه:[٤٩]

١- الخطيب القزويني نفسه في كتاب (إيضاح التلخيص)، وسنفصل الحديث عنه في نهاية هذا المبحث.
٢- محمد بن مظفر الخلخالي (ت٧٤٥هـ)، وضع له شرحا سماه: (مفتاح تلخيص المفتاح).
٣- أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي والملقب بهاء الدين (ت ٧٧٣هـ)، وضع له شرحا سماه (عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح).
٤- محمد بن يوسف المعروف بابن ناظر الجيش (ت٧٧٨هـ) وسمى شرحه: (شرح تلخيص القزويني).
٥- محمد البايرتي (ت ٧٨٦هـ) وسمى شرحه: (شرح تلخيص المفتاح للقزويني).
٦- شمس الدين القونوي (ت٧٨٨هـ) وسمى شرحه: (شرح تلخيص المفتاح للقزويني).
٧- سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، (ت٧٩٢هـ) وضع له شرحين: الشرح الكبير وسماه: (المطول)، والشرح الصغير للتلخيص وسماه: (المختصر)، والحواشي على المطول كثيرة، وعنه يقول الدكتور شوقي ضيف: "وعد القدماء هذا الشرح خير شروح التلخيص، وعني كثيرون بوضع الحواشي عليه وفي مقدمتهم تلميذه السيد الشريف الجرجاني المتوفى سنة (٨١٦هـ)، وهو يعنى في حاشيته بإيراد اعتراضات كثيرة على كلام أستاذه، مع التغلغل في المباحث المنطقية والفلسفية والكلامية... ومن حواشي المطول حاشية محمد بن حمزة الفناري المتوفى سنة (٨٣٤هـ)، وهو من علماء الأناضول، وحاشية عبد الحكيم بن شمس الدين السيالكوتي الهندي المتوفى سنة (١٠٦٧هـ)، وهي مطبوعة في الآستانة، وعمد التفتازاني إلى وضع مختصر لشرحه المطول، وللشيخ محمد الدسوقي المصري المتوفى سنة ١٢٣٠هـ حاشية مطولة عليه"[٥٠].

وتعتبر حاشية الدسوقي[٥١] على السعد التفتازاني من الحواشي المتأخرة، وقد طبعت مع شروح التلخيص الشهيرة.

٨- عبد الرحيم بن أحمد العباسي، (ت ٩٦٣هـ) وقد شرح شواهد التلخيص في كتاب سماه: (معاهد التنصيص على شواهد التلخيص).
٩- عصام الدين بن إبراهيم بن محمد عربشاه الإسفراييني المتوفى بسمرقند حوالي منتصف القرن العاشر الهجري، وقد "سماه: (الأطول)، وهو حقا أطول من مطول التفتازاني، ونراه في مقدمته ينوه بالسعد التفتازاني، وبالسيد الشريف الجرجاني لا في حاشيته فقط على المطول، بل أيضا في شرحه للمفتاح"[٥٢].
١٠- ابن يعقوب المغربي (ت١١١٠هـ) وضع له شرحا سماه: (مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح).

---

[٤٩] - انظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، الحاج خليفة، (٤٧٣/١-٤٧٩).
[٥٠] - البلاغة تطور وتاريخ، ص (٣٥٦-٣٥٧).
[٥١] - هو محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي، من علماء العربية، من أهل دسوق بمصر، تعلم وأقام وتوفي بالقاهرة سنة (١٢٣٠هـ = ١٨١٥م). انظر: الأعلام، (١٧/٦).
[٥٢] - البلاغة تطور وتاريخ، ص (٣٥٧).

وممن نظموه شعرا:

١- زين الدين بن أبي العز طاهر بن حسن الحلبي، (ت٨٠٨هـ) وسماه (التخليص في نظم التلخيص).
٢- زين الدين عبد الرحمن بن أبي بكر المعروف بالعيني، (ت٨٩٣هـ).
٣- السيوطي (ت ٩١١هـ)، وسمى نظمه: (عقود الجمان في المعاني والبيان)، ثم عاد وشرحه في كتاب سماه (حل عقود الجمان)
٤- عبد الرحمن الأخضري، وسمى نظمه: (الجوهر المكنون في الثلاثة فنون).

وممن قام باختصاره:

١- شهاب الدين أحمد بن محمد المعروف بالصاحب، (ت ٧٨٨هـ)، وسماه: (لطيف المعاني).
٢- المولى لطف الله بن حسن التوقاني المتوفى شهيدا (٩٠٠هـ)، وسماه: (تلخيص التلخيص).
٣- عز الدين بن جماعة (ت٨١٩)، وسماه: (تلخيص التلخيص).
٤- زين الدين عبد الرحمن بن أبي بكر المعروف بالعيني، (ت٨٩٣هـ)، وسماه: (تحفة المُعاني لعلم المعاني).
٥- أبرويز الرومي (ت٩٨٧هـ)، وسماه: (تلخيص التلخيص) أيضا.
٦- خضر بن محمد مفتي أماسية (ت بعد ١٠٦٠هـ)، وسمى تلخيصه: (أنبوب البلاغة)، ثم شرحه وسماه: (الإفاضة لأنبوب البلاغة).
٧- زكريا الأنصاري.

رحم الله أولئك العلماء، وأدخلهم فسيح جناته.

* * *

انتشار التلخيص في الآفاق:

وقد تنوعت بلدان الشارحين، مما يدل على انتشار التلخيص في المشرق والمغرب، وعلى الرغم من جمود تلك الشروح فلا يخلو بعضها من إضافات؛ كما هو الحال عند السبكي والتفتازاني، يقول الدكتور شوقي ضيف: "وأقبل شراح مختلفون على التلخيص يشرحونه، بين مصري وإيراني ومغربي، ومن أهمهم: السبكي المصري، وسعد الدين التفتازاني، وابن عرب شاه الإسفراييني، وابن يعقوب المغربي، وكتبت على بعض الشروح حواش للسيد الشريف الجرجاني، والشيخ محمد الدسوقي، وجميعها تخوض في مباحث منطقية وفلسفية وكلامية، وأصولية ونحوية، ومناقشات لفظية، وكل يعيد ما قاله سالفه إعادة تصور ما ساد في المباحث البلاغية من عقم وجمود"[٥٣].

ما أضافه المتأخرون:

وثمة تطور أحدثه المتأخرون في علم البديع، وعنه يقول الدكتور شوقي ضيف: "ومضى أصحاب البديع منذ عصر ابن المعتز، يحاولون أن يضيفوا إلى فنونه التي اكتشفها وسجلها فنونا جديدة، حتى إذا كنا في القرن السابع الهجري وجدناهم يحصون منها نحو مائة وخمسة وعشرين فنا، حاشدين بينها الصور البيانية وكثيرا من صور علم المعاني، ومضيفين كثيرا من الصيغ التي لا يمكن أن تُسلك في المحسنات البديعية، وكأن المسألة تحولت إلى تكاثر بالأرقام، ولم يلبث

[٥٣] - المرجع السابق ، ص (٣٧٥).

أصحاب البديعيات النبوية أن ظهروا، مصورين في كل بيت من أبياتها فنا من فنون البديع، وبلغوا أكثر من مائة وخمسين فنا، واحتاجت هذه البديعيات إلى الشروح لتفك رموزها وتوضح دلالاتها، وتكاثرت الشروح دون جدوى حقيقية تعود على البديع، فقد عم العقم والجمود، ولم يعد هناك من يستطيع أن يبدي ملاحظة قيمة في أي شأن من شئون البديع والبلاغة"[٥٤].

موقف النقاد من هذه الشروح:

وعن قيمة هذه الأعمال التي قامت حول التلخيص يقول الدكتور عبد العزيز عتيق: "وتلك الشروح والتلخيصات والمنظومات، إن دلت على شيء؛ فعلى جمود الفكر البلاغي وعقمه منذ عصر السكاكي، نقول ذلك لأن كل ما ظهر من شروح وتلخيصات لكتاب: (المفتاح) لا تخرج عن كونها ترديدا وتكرارا لمادته، ومحاولات قصد بها الإيضاح بالشرح أو التقريب والتبسيط، عن طريق الإيجاز والتلخيص والنظم، وإذا هي من حيث لا يريد ولا يدري أصحابها؛ قد زادت المفتاح صعوبة على صعوبة، وإنه ليخيل لمن يقرأ هذه الشروح والمتون أن واضعيها لم يكونوا علماء في البلاغة بقدر ما كانوا معلمين لها، يذكرون الكلمة أو العبارة من الأصل، ثم يتبعونها بشرح المراد منها، ولا يتجاوزون ذلك، كلهم في ذلك سواء"[٥٥].

جمود البلاغة بعد الخطيب:

يقول الدكتور شوقي ضيف عن جمود البلاغة بعد القزويني: "وواضح من كل ذلك أن العصور المتأخرة، منذ عصر الفخر الرازي والسكاكي، لم تستطع أن تضيف إلى مباحث البلاغة مباحث جديدة، من شأنها أن تبقي لها على ازدهارها الذي رأيناه عند عبد القاهر والزمخشري، لسبب طبيعي؛ وهو ما ساد في هذه العصور من الجمود، لا في البلاغة فحسب، بل أيضا في الشعر والنثر، وحقا صاغ السكاكي قواعد الزمخشري وعبد القاهر صياغة علمية، ولكن هذه الصياغة نفسها كانت من أهم الأسباب التي أشاعت الجمود بل العقم في البلاغة، إذ تحولت إلى قواعد متحجرة، وأصبح عمل البلغاء بعد ذلك: شرحها، أو تلخيصها، ثم شرح التلخيص، مع العودة أحيانا إلى عبد القاهر والزمخشري لتحرير بعض المسائل، ومع التغلغل في مباحث فلسفية ومنطقية وكلامية وأصولية، وهي مباحث ظلت تتسلق على شجرة البلاغة حتى خنقتها خنقا، وحتى أصبحنا لا نجد إلا كلاما معادا مكررا، لا ينمي ذوقا ولا يربي ملكة"[٥٦].

هكذا تحولت البلاغة إلى علم جامد بعد الخطيب القزويني[٥٧]، ولم يحيها إلا عودة المحدثين بقيادة الشيخ محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا إلى تراث الشيخ عبدالقاهر الذي لم يجد الزمان بمثله باحثا محللا ربط البلاغة بالأدب والحياة، وربطها من بعده بالمنطق والفلسفة، وشتان بين المنطقين والتفكيرين، منطق الأدب والحياة، ومنطق التقسيم والتقعيد والتعقيد والفلسفة!!.

* * *

---

[٥٤] - المرجع السابق، ص (٣٧٥-٣٧٦).

[٥٥] - علم المعاني، ص (٣٣).

[٥٦] - البلاغة تطور وتاريخ، ص (٣٥٨).

[٥٧] - استفدنا في هذه الفقرة من بعض ما أوردناه في كتابنا: مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن الكريم، ص (٢٤١-٢٥٢)، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

الخاتمـــــــــــة

نذكر فيها خلاصة التجربة القزوينية، ونتائج البحث

أما التجربة القزوينية

فقد اخترنا التلخيص لأنه عصارة الفكر البلاغي عند العلماء المتأخرين، قال السبكي: (وبعد: فإن تلخيص المفتاح في علم البلاغة وتوابعها بإجماع من وقف عليه، واتفاق من صرف العناية إليه، انفع كتاب في هذا العلم صنف، وأجمع مختصر فيه على مقدار حجمه ألف) [٥٨].

وقد كان الخطيب القزويني منشغلاً بالتقعيد للدرس البلاغي، وفي مناقشة السكاكي في بعض المسائل العلمية، ولم يكن له قدرة عبد القاهر وخياله في التحليل، ولا منهج السكاكي الصارم في التقعيد والتبويب، بل كان وسطاً بينهما، لم يشغله في النصوص التي أوردها إلا ما يخدم مباحث البلاغة، وتحليله مقتضب في الغالب.

والتجربة القزوينية بنت وقتها، تصلح في تعليم البلاغة في زمانها وما أعقبه من عصور انحطاط وتقهقر حضاري، ولكن الزمان قد تجاوزها في العصر الحديث!.

* * *

وأما نتائج البحث، فنلحظ الآتي:

أولاً: هنالك جدل علمي حول مآخذ على درس البلاغة العربية

هنالك فريق لديه بعض المآخذ على البحث البلاغي عند العرب، فهو قاصر وجزئي، مقارنة بالبلاغة الأوروبية حسب تصور الدكتور شوقي ضيف، وفي في هذا السياق يقول: "من يقرن مباحث البلاغة العربية إلى مباحث البلاغة الغربية؛ يلاحظ تواً أن الغربيين عنوا في بلاغتهم بدراسة الأساليب والفنون الأدبية، بينما لم يكد يعنى بهذه الجوانب أسلافنا، إذ صبوا عنايتهم على الكلمة والجملة والصورة، وفي رأينا أن ذلك يرجع من بعض الوجوه إلى أنهم قصدوا بقواعدهم البلاغية: تعليلَ بلاغة العبارة القرآنية، وما تحمل من خصائص تعبيرية وصور بيانية، واستوفوا تصوير ذلك تصويرا دقيقا رائعا، وأيضا من الأسباب التي دفعتهم في هذا الاتجاه طبيعة شعرنا القديم، إذ كان في جملته وجدانيا غنائيا، يجري في أسلوب عام واحد، سواء في معانيه، أو في صوره وأخيلته، وصيغ تعبيره. وتعارف الشعراء على أن كل بيت في القصيدة وحدة مستقلة، وهذه الوحدة هي أساس البلاغة والجمال الفني، وبذلك لم توجد في محيط الشعراء، ولا في محيط البلاغيين، نظرة شاملة عامة للقصيدة، بل ظلت نظرتهم تنصب على الجزئيات وأفراد الأبيات والعبارات"[٥٩].

ويرى الأستاذ أحمد الشايب علمَ البلاغة قاصراً في الأساليب؛ كما هو قاصر في قسم الفنون الأدبية، إلا فقرات مفرقة أو فصول درست لأغراض غير أدبية، كما في آداب البحث والمناظرة، ويوازن بين البلاغة كما هي في الكتب، وكما ينبغي أن تكون عليه ليقرر أن البلاغة العربية في حاجة إلى وضع علمي جديد، يشمل هذه الأبواب والفنون التي أشرنا إليها، ويصل بينها وبين

---

[٥٨] - شروح التلخيص (عروس الأفراح)، (٤/١).
[٥٩] - البلاغة تطور وتاريخ، ص (٣٧٦).

الطبيعة الإنسانية لملابساتها الزمانية والمكانية، حتى يخدم الأدب، وذلك كله غير البحث التاريخي الذي يفرد له درس خاص[٦٠].

ويرى الأستاذ أمين الخولي[٦١] وجوب أن تكون غايات البلاغة للحياة ليس إلا، يقول: "غايات البلاغة اليوم غايات لا تلتمس لغيرها من أغراض أخرى وراءها، دينية كانت أو سواها، بل تلتمس وفاء بحاجة الحياة التي يحياها الفرد والجماعة، وسعيا إلى ترقية مستوى هذه الحياة، وإفساح آفاقها المعنوية على ما رأيت أنه غاية الحياة الجادة اليوم في مختلف صورها"[٦٢].

ونستطيع أن نلخص مما سبق أهم المآخذ على البلاغة لدى مجموعة من الباحثين، وهي:
١- قصور البحث البلاغي على الجملة أو البيت من الشعر دون النص.
٢- إن البلاغة القديمة لا تغطي مباحث علم الأسلوب.
٣- أدخلت غايات على البلاغة خارجة عن وظيفتها الأساسية.
٤- امتزاج البلاغة بالمباحث الفلسفية.

دفاع عن البلاغة:

وهناك فريق من الباحثين يفندون الدعاوى السابقة بحق البلاغة، فمثلا رد الدكتور فضل حسن عباس فكرة وقوف البلاغة عند الجملة، حيث قال في هذا الصدد:"ودعوى وقوف البيانيين عند الجملة وحدها دعوى ظالمة، أخذت دون روي أو تمحيص، روج لها شوقي ضيف في كثير من كتبه، فتلقفها الكثيرون"[٦٣].
على أن الدكتور فضل حسن عباس لم يرفض مصطلح: (فن القول)، فقد قال في مقدمة أحد كتبه: "فهذه مباحث في البلاغة العربية (فن القول) أرجو أن تكون دانية القطوف، سهلة المنال، وارفة الظلال"[٦٤].

موقفنا من الفريقين

والموقف العلمي السليم أن ننظر إلى العلوم بعامة، ومنها البلاغة، على أنها تنمو وتتطور عبر التاريخ، فلا نقدس التراث كما يعمل سدنته، ولا نرميه في البحر كما يريد أعداؤه، ولكن ننظر إليه بعين فاحصة، ونعطي للأوائل حقهم من السبق والتأسيس والتمهيد للعلوم، ونسمح للمتأخرين بتطوير ما شيده الأوائل، وإكماله لا هدمه ... ونحن نؤمن بتطور العلوم عبر التاريخ، ونرفض نظرية الصراع بين القديم والجديد في تاريخ العلوم، كما نؤمن بوحدة الثقافة الإنسانية والتراث الإنساني، فلا ضير من التأثير والتأثر، شريطة أن لا نجور في أحكامنا النقدية، فنعزو كل إبداع إلى التأثر بالآخرين، متناسين دور العبقرية الإنسانية في التوليد والتجديد والاختراع.

* * *

---

[٦٠] - انظر: الأسلوب، ص(٣٨-٣٩)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٩٩٠م.
[٦١]- أمين الخولي، من أعضاء المجمع اللغوي بمصر، عين أستاذا في الجامعة المصرية، ومديرا للثقافة العامة بوزراة التربية والتعليم إلى سنة ١٩٥٥م. توفي بالقاهرة. (١٣١٣-١٣٨٥هـ = ١٨٩٥-١٩٦٦م). انظر: الأعلام، (١٦/٢).
[٦٢]- فن القول، ص (١٥٦)، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.
[٦٣]- البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية ، ص (٢٦٨).
[٦٤]- البلاغة فنونها وأفنانها، ص (١)، دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٨٥م.

ثانياً: بعض المآخذ التي لمسناها في دراستنا للبلاغة:

إضافة إلى ما ذكرناه من سلبيات في دراستنا للبلاغة العربية من إهمال خصائص النص، والعناية بالشاهد وحده، فقد لمسنا بعض السلبيات في جوانب أخرى منها:

أ- تداخل المباحث بين المعاني والبديع والبيان، فمثلاً المجاز العقلي هو من مباحث علم المعاني عند الخطيب القزويني، ذكره عقب حديثه عن الخبر[٦٥]، بينما هو من مباحث علم البيان عند السكاكي[٦٦]، وقد جرى المعاصرون على دراسة المجاز العقلي ضمن مباحث علم البيان.
ونلحظ أن بعض مباحث البديع درسها الخطيب في علم المعاني ضمن مبحث الإطناب[٦٧]، مثل التكميل والاحتراس، ودرسه السكاكي ضمن وجوه تحسين الكلام - البديع - وسماه الاعتراض أو الحشو[٦٨]، واستشهد له بقول طرفة:

فسقى ديارِكِ غير مفسدها
صوب الربيع وديمة تهمي

ب- تداخل المصطلحات البلاغية، فهنالك بعض المصطلحات لم يستقر لها حال، ففي حديث الخطيب عن الاعتراض شرط أن يكون في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى، ثم قال: "جوز بعضهم وقوعَه آخرَ جملةٍ، لا تليها جملةٌ متصلة بها، فيشملُ التذييلَ، وبعض صور التكميل، وبعضهم كونه غيرَ جملةٍ فيشملُ بعض صور التتميم والتكميل"[٦٩]

ج- كثرة التقسيمات، فوجه الشبه عند السبكي مثلاً بلغت أقسامه خمسة وثلاثين قسماً، يقول: (فقد علمت أن وجه الشبه يكون واحداً أو غيره، وأن انقسامه سبعة بإدخال الوهمي والوجداني في العقلي، والخيالي في الحسي، فإن لم يدخلها فالأقسام خمسة وثلاثون ...).
وبعد تعداد الوجوه يقول: (وهذه الأقسام كل منها قد يكون وجه الشبه فيه تحقيقياً في الطرفين، أو تخييلياً فيهما، أو تخييلياً في المشبه فقط، أو في المشبه به، فقط، أربعة أقسام، تضرب فيما سبق تبلغ مائة وأربعين، وتضرب بحسب أقسام الطرفين مع ما سبق وما سيأتي إلى شيء كثير يعلم مما بعد عند استيفاء أقسام الطرفين إن شاء الله تعالى!). [٧٠]
وكثرة التقسيمات عملية عقلية رياضية متكلفة، ولا علاقة لها بالبلاغة أو الأدب، بل هي مما يثقل الدرس البلاغي، ويجعل الدارسين ينفرون منه.

د- ضبابية التعريفات، فمثلاً: عرف الخطيب البلاغة في الكلام: (مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته)[٧١]. ومقتضى الحال: (هو الاعتبار المناسب)[٧٢]. وعرف **علم المعاني:** (هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال)[٧٣]. والملاحظ أن تعريف البلاغة يشمل علم المعاني مع الفصاحة، فأين منه علم البيان وعلم البديع!؟

---

[٦٥] - انظر: التلخيص في علوم البلاغة، ص (٤٤).
[٦٦] - انظر: مفتاح العلوم، ص (١٨٥).
[٦٧] - انظر: التلخيص في علوم البلاغة، ص (٢٢٩).
[٦٨] - انظر: مفتاح العلوم، ص (٢٠٢).
[٦٩] - التلخيص في علوم البلاغة، ص (٢٣٣-٢٣٤).
[٧٠] - شروح التلخيص، (عروس الأفراح) (٣/٣٨٤-٣٨٥).
[٧١] - التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص (٣٣).
[٧٢] - التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص (٣٥).
[٧٣] - التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص (٣٧).

هـ - إن مقتضى الحال يحتاج إعادة نظر، فحال من يراعي المتكلم: حاله، أم حال المخاطبين؟ لقد كان الأدب قديما موجها للآخر كي يسمع، واليوم هو موجه للذات أولا، فالأديب يكتب ليعبر عما في نفسه من عواطف مختلفة، فيجب أن يرضي (أنا) الداخلية أولاً.
كما أن فكرة مقتضى الحال قديما كانت ضيقة ومحدودة، وما ذكره الجاحظ بصددها لا يتفق وإعجاز القرآن، فقد خاطب القرآن البيئات والعصور كلها، وبينها أحوال متباينة ومسافات متباعدة ومناهج تفكير مختلفة، فكيف وافقها جميعاً؟! هذا ما حدا بنا إلى تطوير فكرة مقتضى الحال في القرآن الكريم وجعلها أحد وجوه الإعجاز في مبحث سابق نشرناه[٧٤].

و- لا بد أن نقر بأن إعجاز القرآن هو سر من أسراره، وما ذكر عن الإعجاز البلاغي وغيره من الوجوه القرآنية المعجزة هي مجرد محاولات واجتهادات من العلماء لبيان الإعجاز، وأما الوجه الحقيقي للإعجاز فلا يعلمه إلا الله تعالى!، ولذلك ينبغي أن تنأى الدراسات البلاغية عن التكلف في ميدان الإعجاز، وعن الجزم بأنها تقدم حقائق علمية لا مجرد محاولات بشرية قابلة للصواب والخطأ؛ وهي محاولات في عمومها نرجو أن تكون مأجورة مشكورة في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى!.

ز- أقحمت بعض المباحث اللغوية على علم البلاغة، وهي لا صلة لها بها، فمثلا تقسيم لفظ الاستعارة إلى أصلية وتبعية تبعاً للفظها من حيث هو جامد أو مشتق أمر يتعلق بعلم الصرف، ولا صلة له بالبحث البلاغي.

ح - إن تقسيم مباحث البلاغة على ثلاثة علوم، يقصد منه تنظيم هذا العلم للدارسين، وأما عملية الإبداع فهي تكون دفعة واحدة، تتداخل فيها العلوم جميعاً مع الحوافز النفسية والدوافع الواقعية في ولادة العمل الأدبي. ولم نسمع ان أديبا ألف قصيدته مثلا وفق علم المعاني، ثم أتبع التأليف بعلم البيان، ثم قام بإدخال المحسنات البديعية، بل ربما كانت بعض المحسنات أساسية في الكلام أكثر من بعض مباحث المعاني والبيان.

ولا بد أن نشيد هنا بمدرسة البلاغة المصرية التي تمزج العلوم الثلاثة تحت مسمى البيان اقتداء بما فعل ضياء الدين بن الأثير الجزري - وهو عراقي من الجزيرة الفراتية - في المثل السائر، أو تحت مسمى البديع كما فعل ابن أبي الأصبع المصري في بديع القرآن وتحرير التحبير، وهذه المدرسة هي أقل تكلفا من الناحية المنهجية، وأقرب إلى فطرة العرب الذين يميلون إلى اليسر في الأمور، وأنسب للقارئ المعاصر الذي يضيق ذرعا بالتقعيد والتنظير، ويميل إلى السهولة في البحث.

وقد أدرك السابقون وجود ثغرات في هذا العلم، وأنه بحاجة إلى بذل مزيد من الجهود لبنائه وإصلاحه، ولذلك كان بعض المشايخ يقول: (العلوم ثلاثة علم نضج وما احترق وهو علم الأصول والنحو، وعلم لا نضج ولا احترق وهو علم البيان والتفسير، وعلم نضج واحترق وهو علم الفقه والحديث) [٧٥].

* * *

[٧٤] - انظر: مراعاة مقتضى الحال في القرآن الكريم إحدى وجوه إعجازه، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، العدد (٥٩)، كانون الأول، ٢٠٠٤م.
[٧٥] - المنثور في القواعد، للزركشي، تحقيق د. تيسير فائق أحمد محمود، (٦٧/١-٧٢)، نشر: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، ط١، ١٤٠٢هـ.

ثالثاً: التوصيات

أ- لا بد أن يستفيد علم البلاغة مما وصل إليه الفكر البلاغي من تقدم في أبحاثه عند الأمم الأخرى، ونشير هنا إلى تشابه قوانين اللغات وتشابه الإدراكات البشرية، فقد قال أبو هلال العسكري: (ومن عرف ترتيب المعاني، واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات، ثم انتقل إلى لغة أخرى، تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الأولى، ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي، فحولها إلى اللسان العربي، فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى، وتصحيح اللفظ، والمعرفة بوجوه الاستعمال)[٧٦].

ب- لابد أن تكون البلاغة مستوى ضمن مستويات تحليل النص الأدبي.. وهذه المستويات هي: المستوى الفكري، المستوى اللغوي- والدلالي، المستوى النحوي والصرفي، المستوى البلاغي، المستوى النفسي-الشعوري، المستوى الشكلي.

ج- لا بد من إعادة الاعتبار للغة العربية وعلومها إذا أردنا أن يكون لهذه الأمة مستقبلا مشرقا تحت الشمس!

والحمد لله رب العالمين.

* * *

[٧٦] - كتاب الصناعتين، تحقيق د. مفيد قميحة، ص (٨٤) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

المصادر والمراجع:

١- أسرار البلاغة، تحقيق هـ. ريتر، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
٢- الأسلوب، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٩٩٠م.
٣- الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٨٩م.
٤- الإيضاح في علوم البلاغة، شرح د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
٥- البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة.
٦- البلاغة فنونها وأفنانها، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٨٥م.
٧- البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية ، د. فضل حسن عباس، دار النور، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
٨- التلخيص في علوم البلاغة، شرحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي.
٩- تلخيص المفتاح: علم المعاني والبديع، المنتدى الإسلامي، الشارقة، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
١٠- جامع الدروس العربية، للغلاييني، المكتبة العصرية بيروت، الطبعة (٣٣).
١١- شروح التلخيص، دار السرور، بيروت، (مصورة عن طبعة مصطفى البابي الحلبي).
١٢- علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٤م.
١٣- علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت.
١٤- العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
١٥- فن القول، أمين الخولي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.
١٦- قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، حياة وآراء أعاظم رجال الفلسفة في العالم، ولْ دْيورانت، ترجمة د. فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط٤، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
١٧- كتاب دلائل الإعجاز، للجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.
١٨- - كتاب الصناعتين، للعسكري، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م
١٩- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، الحاج خليفة، دار العلوم الحديثة، بيروت.
٢٠- مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن الكريم، د. محمد رفعت زنجير، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
٢١- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، للعباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت.
٢٢- المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٨٤م.
٢٣- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤م.
٢٤- مفتاح العلوم، للسكاكي، المكتبة العلمية الجديدة، بيروت.
٢٥- مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٧٤م.

٢٦- المنثور في القواعد، للزركشي، تحقيق د. تيسير فائق أحمد محمود، نشر: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، ط١، ١٤٠٢هـ .

* * *